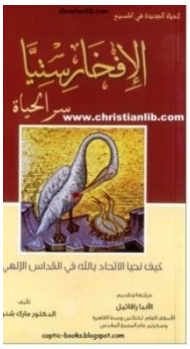

الإفخارستيا[١]
سر الحياة

كيف نحيا الاتحاد بالله في القداس الإلهي؟

مراجعة وتقديم
الأنبا روفائيل
أسقف عام عين شمس والمطرية

تأليف
الدكتور مارك شنوده

من مقدمة الأنبا روفائيل:

الإفخارستيا هي أعظم عطية أعطاها الله للبشر. لقد تجسَّد الله ليترك لنا كل يوم جسده ودمه على المذبح بالكنيسة، فجسد السيد المسيح ودمه على المذبح، هما الهدف النهائي من التجسُّد.

فلو توقَّفت قصة السيد المسيح معنا عند حدِّ الصليب والقيامة والصعود، لصار البشر متفرجين على عمل الخلاص دون الاستفادة منه. ولكن الله نظر لنا شيئًا أفضل، وهو أن يُضمِّن في الخبز والخمر جسده ودمه المُتحدين بلاهوته، ومنحنا أن نأكل ونشرب منهما، فنأخذ حياته فينا، حسب قوله الطاهر: «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يو٦: ٥٧).

ومن مقدمة الناشر:

الله من محبته لنا أعطانا أن نتغذَّى كخليقة جديدة بطعامٍ جديد روحاني لنحيا به إلى الأبد عِوض الطعام المادي الذي يتعاطاه الإنسان العتيق ويموت. إنه "خبز الحياة" النازل من السماء، وما قد وهبه لتلاميذه القديسين يوم أسس سر الشكر في ليلة آلامه، وما قد تركه لنا "كل يوم على المذبح"، أي جسده المقدس ودمه الكريم، غفرانًا للخطايا وحياة أبدية لكل مَن يتناول منهما، وهكذا تصبح الإفخارستيا "سر الحياة"....

وبعد، عزيزي القارئ، هذا الكتاب الروحي الدسم، والشامل الموسوعي، يُغطِّي ويشرح كل جوانب هذا السر العظيم، مستعينًا بعدد غير قليل من أقوال الآباء اللامعة الموثَّقة. إنه يُعطينا لمحات من الأبدية، لتُرافقنا في برية هذا العالم، وترفعنا فوق مُجاذباته وآلامه.

يتكوَّن الكتاب من أحد عشر فصلًا، كل فصل يُكلِّمنا عن جانب حياتي من هذا السر.

---

(١) يقع الكتاب في أكثر من ٥٠٠ صفحة، وصدر عن مركز باناريون للتراث الآبائي: الطبعة الثانية مارس ٢٠١٤.

سنشير في هذا العدد إلى محتوى ثلاثة فصول، والباقي في عددٍ قادم.

الفصل الأول: الإفخارستيا، حياة الشكر: "إفخارستيا" هي كلمة يونانية وتعني "الشكر". وهو أعظم تعبير عن الشكر الذي تُقدِّمه الكنيسة للثالوث. أما الحدث الرئيسي الذي من أجله يُقدِّم الكاهن في العهد الجديد الشكر لله هو تجسُّد الابن الوحيد وموته وقيامته وصعوده لتكميل خلاصنا.

الإفخارستيا هي استعادة لحياة الشكر التي كان يحياها الإنسان في الفردوس قبل السقوط. الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تقديم الشكر "الإفخارستيا" عن كل شيء في العالم، وبلسان الخليقة كلها. الإفخارستيا هي تقدمة متبادلة، فيها نُعيد تقديم العالم وذواتنا لله. الإفخارستيا تُعطينا شركة بكل الكيان مع الرب، ليس فقط شركة روحية، بل و"جسدية" أيضًا.

الفصل الثاني: الإفخارستيا، حياة فصحية: كانت ذبيحة الفصح هي لُب العبادة في العهد القديم. وكما ارتبط الفصح اليهودي بحياة شعب الله قديمًا، هكذا أسَّس المسيح الإفخارستيا، وصنع فصحه الخلاصي في زمن الفصح اليهودي لينطبق الرمز على الحقيقة. إن ذلك يُشير لأهمية الفصح في حياتنا الروحية، فبه نعبرُ ونتحرَّر من العبودية، ويصير لنا الدخول لأرض كنعان الحقيقية التي هي ملكوت السموات. هذا الفصح يحياه المؤمنون ويُجدِّدونه الآن من خلال سرِّ الإفخارستيا. فالإفخارستيا، بحقٍّ، تحمل سرَّ فصح العالم كله، الذي صار بالمسيح.

إن فصح العهد الجديد الذي صنعه المسيح، لم يكن مجرد تذكار بسيط ساذج ولا رمزًا أو تعبيرًا مجازيًّا ولا وسيلة إيضاح، بل هو حقيقة تامة "أليثيا" تتمُّ على مستوى سرِّي، عاشتها وحفظتها لنا الكنيسة عشرين قرنًا، وسجَّلتها لنا الأناجيل: «لأَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ، وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ» (يو ٦: ٥٥)، وصارت خبرة للكنيسة عاشتها وحفظتها عشرين قرنًا من الزمان.

الفصل الثالث: الإفخارستيا، حياة الكنيسة: الكنيسة هي جسد المسيح الواحد المجتمع حول الإفخارستيا. الإفخارستيا تجعل المسيح مركزًا لحياتنا. الإفخارستيا هي اجتماع لمدعوِّين، وهي الاجتماع الرئيسي للكنيسة. إنها اجتماع ملء الكنيسة، المنظورة وغير المنظورة. الكنيسة تصنع الإفخارستيا، والإفخارستيا تصنع الكنيسة. الإفخارستيا هي إحدى ركائز التقليد الكنسي. كل صلوات الكنيسة وأعيادها تتمحور حول الإفخارستيا.

إننا في الإفخارستيا نختبر حضور الرب بشكل خاص، فنحن حين نتقدَّم للتناول، نختبر ما قاله الكتاب: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ يَدْعُوكِ» (يو١١: ٢٨)، إنها دعوةٌ للقداسة والمحبة والثبات في الرب، إنها دعوةٌ شخصية لكل فرد في الكنيسة. (يُتبع)